ادوار الفلسفة الثلاثة

وممیزات كل منها

لمحمود الخوري

كل امة قامت على وجه المعمور منذ فجر التاريخ الى الآن اشتغل مفكروها بشيء من ابحاث الفلسفة بقدر ما اتاحت لهم عقولهم ومداركهم . ولا غرو فان مسائل الحياة الكلية كالوجود والعدم والخلود والفناء والتغير والاستحالة والصيرورة وغيرها من أمور الحياة الهامة لا يعقل ان تفوت مدارك قوم مهما كانت درجة تلك المدارك من الرقي او الانحطاط

غير ان فلسفة الاقدمين اذا استثنينا منها فلسفة اليونان كان يخالطها الشيء الكثير من الخرافات والاوهام وسخائف الاعتقادات ولهذا لم يطلق عليها اسم الفلسفة بمعناها الصحيح ولا أبقى التاريخ على شيء منها جدير بان تتناقله الاجيال . اما الفلسفة اليونانية فقد قدّر لها منذ أول نشأتها طائفة من جبابرة العقول او سلسلة طويلة من عظام المفكرين رفعوا شأنها واعلوا منارها وجعلوا منها علماً واسعاً مستقلاً انتشر بسرعة غريبة في سائر اقطار العالم المتمدن . ولم يكتفوا بان وضعوا اسس الفلسفة فحسب بل انهم رفعوا بنيانها باذخاً ووطدوا اركانها بمختلف الآراء الصحيحة فلم يدعوا باباً من ابواب الفلسفة لم يلجوه ولا غادروا مبحثاً من مباحثها لم يخوضوا عبابه وهذا كبيرهم ارسطاطاليس لايزال مرجعاً سامياً في كافة ابحاث الفلسفة الى يومنا هذا . وقد مرت الفلسفة منذ نشأتها الاولى على ادوار ثلاثة لكل منها مميزات خاصة تميزه عن سواه وسنتوخى في هذا المقال ذكر اهمها لضيق المجال

— ١ —

الدور الاول

﴿ او الدور القديم وهو دور الفلسفة اليونانية ﴾ قد تقدم انه لم يعرف لاي شعب آخر فلسفة صحيحة خاصة مستقلة غير امة اليونان . وكان اول مؤسسي هذه الفلسفة طاليس وهو

الذي انبأ بانكسوف الذي حدث في الثامن والعشرين من شهر آيار (مايو) سنة ٥٨٥ ق. م. وقد تشعبت الفلسفة اليونانية منذ اول عهدها الى فرق او مدارس شتى عرفت باسماء مؤسسيها او الاماكن التي نشأت فيها فهنالك المدرسة الفيثاغورية نسبة الى مؤسسها فيثاغورس المولود في جزيرة ساموس في آخر القرن السادس. والمدرسة الايونية نسبة الى منشإها في مقاطعة ايونيا على الشاطيء الغربي من آسيا الصغرى. والمدرسة الايليائية نسبةً الى مدينة ايلياء. وهنالك المدرسة الافلاطونية والمشائية والرواقية ومدرسة السفسطائيين والافلاطونية الجديدة وغيرها.

اما مميزات هذا الدور فهي:

اولاً: طلب الحقيقة الواحدة المطلقة المستترة وراء ما لا يحصى من مختلف الظواهر والصور والاشكال. وهذه المزية وان كانت لم تتفرد بها الفلسفة اليونانية الا انها من مبتكرات العقل اليوناني ولم يكن لها في الدورين الاخيرين ما كان لها عند فلاسفة اليونان من الخطورة والشأن

وان من يطلع على المناقشات الدقيقة التي دارت بهذا الصدد بين المدرسة الايونية وهي مدرسة التحول والصيرورة والمدرسة الايليائية مدرسة الثبوت يعلم شيئاً من الخطورة التي كانت لهذه المسألة في الدور القديم ولا يجهل مطلع على ابحاث الفلسفة ما كان لمسألة الوحدة من الشأن العظيم في جميع ادوار الفلسفة

ثانياً: احتقار المادة وكل شيء مادي من شأنه أن يعوق النفس عن تطلب الكمال الانساني. ان جميع مدارس الفلسفة اليونانية اذا استثنينا منها مدرسة ديمقراط وابيقور اللتين كانتا من النوع المادي البحت أجمعت على تحقير المادة واعتبارها مفسدة للاخلاق وحائلاً كبيراً يعترض النفس في طريقها الى الفضائل والصلاح واوضح ما يكون ذلك في تعريف افلاطون للمادة حيث يقول:

المادة هي الشيء الذي لا صورة لهُ ولا شبه صورة بل هو اشبه الاشياء بالعدم لا قيمة لهُ ولا فائدة منهُ سوى انهُ يتكيف وفقاً لارادة العقل تنفذ فيه النفس رغائبها وميولها. ولا يخفى ان هذا النظر الفلسفي القديم في اعتبار المادة هو غير النظر الديني او الفلسفي الديني الذي كان لها في الدور الثاني. فالاول فلسفي محض غايتهُ ترقية النفس الى ان تبلغ ذروة الكمال الانساني. والثاني ديني مبني على احتقار المادة وقتل كل ميل اليها تطهيراً للنفس من ادران المادة واعداداً لها لنيل الحياة الابدية

ثالثاً: الصبغة العقلية الغالبة في الفلسفة اليونانية على الصبغة الحسية المادية. كانت فلسفة اليونان في اول امرها فلسفة مادية محضة فقد كان الكون عندهم ما تألف من العناصر الاربعة المعروفة فلم يكن معلوماً لديهم شيء من قبيل العنصر الروحي او العقلي. واستمرَّ ذلك شأن الفلسفة الى ان قام انكساغوراس فقال بوجود عنصر او قوة فائقة خفية متسلطة على المادة اسماها العقل وقال ان هذا العنصر العقلي يختلف جوهراً وماهية عن عناصر المادة وغير قابل الامتزاج بها

وانهُ مدبر هذه الكائنات وموجد النظامات الطبيعية الشاملة . وذهب افلاطون الى ان الوجود الحقيقي انما هو للعقل وما عالم المادة الا تابع لا شأن لهُ وهذا ما جعل افلاطون في نظر المتأخرين مؤسس المذهب العقلي التصوري — (Idealism) ومثل ذلك نرى في اقوال سقراط وارسطاطاليس وبارمنيدس وانبدوكليس والرواقيين . ومما هو جدير بالذكر ان اهل البحث وطلاب المعرفة في الدور القديم طلبوا المعرفة لذاتها لا ليجعلوها واسطة لاغراض ومقاصد اخرى كما كان الحال في العصور التالية . كما انهم طلبوا الفضيلة حبًّا بها لا لتستخدم في شؤون ومنافع مادية كما جعلها ابناء الاجيال اللاحقة خصوصاً في عصرنا الحاضر

— ٢ —

الدور الثاني

﴿ دور الفلسفة اللاهوتية او المدرسية ﴾ وقد عرف اصحاب هذه الفلسفة بالمدرسيين لان معظمهم كانوا يشتغلون بصناعة التدريس في جهات مختلفة . نشأت هذه الفلسفة ونمت مع انتشار الدين المسيحي في ممالك الغرب في عهد التمدن الروماني وقد كان منشأها كما يعلم الباحثون لغاية واحدة هي الدفاع عن تعاليم الديانة المسيحية وعقائدها . ذلك انهُ على اثر انتشار الدين المسيحي في بلاد الغرب قام اعداء الدين الجديد من فلاسفة الوثنية يحاربون ذلك الدين ويحاولون سحق مبادئه وتعاليمه في المهد فكانوا يدسون في اذهان الملا ان تلك التعاليم لا تنطبق في شيء على احكام العقل وانها تناقض كل المناقضة مبادىء الفلسفة التي وضعها فلاسفة اليونان . وقد اوَّلوا بعض آراء تلك الفلسفة تأويلاً يوافق اهواءهم واغراضهم . لذلك تخوفاً على اركان الدين ان تتزعزع وعلى العقول ان تتسرب اليها سموم تلك المفاسد هب آباء الكنيسة (المدرسيّون) لصد هجمات الخصوم ودحض مفترياتهم وكان لا بدَّ لهم في ذلك من محاربة الخصوم بمثل اسلحتهم من مبادىء الفلسفة اليونانية ذاتها . لذلك عمدوا الى وضع آراء ومذاهب جديدة في الفلسفة معتمدين فيها على الغالب آراء افلاطون وارسطاطاليس بنوع خاص . ولولا ذلك لما عني الآباء بوضع فلسفة طبيعية خاصة بهم . اما مزايا هذا الدور فأهمها اثنتان : الاولى ان فلسفة هذا الدور هي في الدرجة الاولى فلسفة روحية . وقد كان الدين العامل الاول في توجيه الافكار الى الامور الروحية غير ان وصايا الدين وحدها لم تكن كافية لاقناع الجماهير واستمالتهم الى سبيل الصلاح فقبل أن نستطيع ان نحيا الحياة الروحية يقتضي ان نفهم اولاً ماهية الروح وجوهرها فالمعرفة يجب دائماً ان تسبق العمل وتبعث عليه وبدون المعرفة الصحيحة لا يصدق العمل . وهذا

ما فعلته الفلسفة بكل دقة وجلاء وكان من نتيجة ذلك صرف القلوب والافكار الى الامور الروحية وتفهم اسرار الروح فتقوّى بذلك العنصر الروحي في الانسان واشتدّ الميل الى البر والصلاح فضعفت شوكة المفاسد في النفوس وتزعزع سلطان الرذيلة . وقد كان الدين وحده قوة فعالة في محاربة جيوش الفساد فكيف وقد تضامن الدين والفلسفة معاً في ذلك الجهاد

الثانية نشر المبادىء الاجتماعية الصحيحة كالعدل والمساواة والاخاء. من المعلوم ما كان يسود على الاقوام قاطبة من التفاوت المشوم بين الطبقات وما نشأ عن ذلك التفاوت من الضغائن والاحقاد والفتن التي كثيراً ما كانت تؤدي الى ما لا يوصف من الويلات والخسائر في المال والنفوس . وكان راسخاً في الاذهان ان ذلك التفاوت على الرغم من اضراره امر طبيعي لا مفر منه فلما طلعت شمس الدين الجديد وانبث دعاته يركزون مبادىء الاخاء والمساواة انفتحت له الابواب واستقبلته النفوس استقبال ظامىء اصاب منهلاً لهذا وان لم تكن هذه المبادىء شيئاً جديداً في عالم الوجود فلا شك ان الدين هو اقوى العوامل على غرسها في النفوس وابعد تأثيراً من سائر العوامل الاخرى

— ٣ —

الدور الثالث

﴿ دور الفلسفة الحديثة ﴾ شهد مطلع القرن السادس عشر فاتحة عصر التجديد الفلسفي وهو ثالث ادوار الفلسفة على ما تقدم وكان استهلال العصر ثورة عامة على القديم وعلى المذاهب الفلسفية السابقة اجمالاً . وكان في مقدمة الثائرين وأول نافخ ببوق الثورة الفيلسوف باكون الانكليزي وقد وجه قوارص انتقاداته بنوع خاص الى آراء ارسطاطاليس . اما اسباب تلك الثورة فأهمها اثنان:

الاول : ان المجددين رأوا ان فلسفة الاقدمين كانت فلسفة عقيمة عديمة الجدوى وقد حملهم على هذا الرأي اعتقادهم ان تلك الفلسفة لم تعنَ بالنظر في شؤون البشر بل كانت بجملتها فلسفة نظرية بعيدة عما يتعلق بأمور البشر ومنافعهم فكان كل همها البحث في ما وراء الطبيعة في ما وراء هذا الوجود المادي لذلك كانت عديمة الفائدة لم يجنِ منها النوع الانساني ثمرة واحدة من ثمار التقدم والارتقاء

الثاني: الضغط والتقييد الفكري من جانب السلطتين الروحية والزمنية ومنع العقل من الانطلاق في ميدان البحث بحرية تامة وهو ما أفضى اخيراً الى الحركة الاصلاحية الدينية والسياسية المشهورة في القرن السادس عشر وما بعده . اما مزايا هذا الدور فكثيرة نتناول منها اهمها :

الاولى : المادية وهذه اظهر مميزات العصر الاخير ونتيجة لازمة عن نظرية المجددين من وجوب تحقير الامور الروحية المجردة والتي لا تتصل بالمادة او استنزال الفلسفة من سموّ معانيها والاهتمام بالاشياء الارضية . فكما ان الفلاسفة الاقدمين قضوا بتحقير المادة وتأليه العقل وكان الى الآن الارجح في الدور الثاني قضى المجددون بتأليه المادة واهمال الروح ولا يخفى ما في هذه المبادىء المعكوسة من تقوية الطبائع والغرائز المادية الحيوانية وملاشاة الميول الروحية العقلية في النوع الانساني

الثانية : النفعية او ايثار الذات وهذه ايضاً من نتائج نظرية المجددين من حيث ابتغاء الامور العملية النافعة بدلاً من النظرية العديمة النفع وتطلب الاشياء التي تؤول الى راحة الانسان وترفيه عيشه عوضاً عن التي تشغل عقله على غير طائل . ولنظرية النفعية هذه قد كان لها شأن كبير في تاريخ الفلسفة ولا تزال وهي ترجع في اصل نشأتها الى عهد ابيقور والابيقوريين او الى ما قبل ذلك وللفلاسفة فيها مذاهب شتى لا مجال لتفصيلها هنا الا انه لا بدَّ من القول ان مذهب النفعية هذا قد تطوَّر تطوراً خطيراً في الآونة الاخيرة وبعد ان كان المراد منه النفع الذاتي الافرادي اصبح المقصود به النفع العام الجمهوري وصارت قاعدته « اعظم النفع لاوفر العدد » ولا يخفى ما في هذا الاخير من الاختلاف المعنوي العظيم عن الاول

الثالثة : الصبغة الحسية الغالبة فيها على الروحية العقلية . ليس من السهل على الباحث تعيين صبغة خاصة للفلسفة الحديثة نظراً لتضارب الآراء وتباين المذاهب وتعددها خصوصاً في هذا العصر فلا نستطيع ان نقول مثلاً انها فلسفة حسية (Sensationalism) او نظرية (Rationalism) او فكرية خيالية (Idealism) او روحية معنوية (Spiritualism) فالآراء لا تزال متضاربة اليوم كما كانت في كل عصر ولكل مذهب انصاره ومؤيدوه . الا اننا اذا اردنا تعيين الصبغة الغالبة نوعاً في الفلسفة الحديثة نقول ان الرأي الحسي هو الغالب فيها على سواه ولا شك ان العامل الاكبر في اعطاء الفلسفة هذه الصبغة هو الفكرة المادية المنتشرة منذ اول عهد التجديد الفلسفي والميل العالمي الشديد الى الامور العملية الاقتصادية وترقية الصناعات والفنون فامام اليوم تسوده هذه الفكرة الحسية المادية وتتغلب في جميع اوساطه على كل فكرة روحية او مبدأ عقلي وقد طغى هذا الميل في البشر وتفاقم تفاقماً ينذر بكل شر مستطير ولهذا غدونا نرى الكثيرين من مفكري هذا العصر ينذرون الشعوب بسوء المصير اذا كانت المدنية ستستمر على هذا النحو من الاميال المادية والاستغناء بها عن كل ميل روحي او ادبي

***

هذا ما لاح لي من مميزات ادوار الفلسفة قديماً وحديثاً اتيت عليه بايجاز مراعاةً للمقام وعسى ان يوافينا البعض بما يرتأون من هذا القبيل تتمةً للفائدة في هذا البحث الخطير